الموروث الحكائي الشفهي في تهامة
أشكاله.. وشخصياته

الدكتور خالد يحي الأهدل
أستاذ الأدب الشعبي المساعد
بكلية التربية بزبيد - جامعة الحديدة

الملخص:
حاولت هذه الدراسة مقاربة الموروث الحكائي الشفهي في تهامة، من خلال تأصيل أشكاله ورصد ما يتفرد به من خصوصية – في الأشكال والشخصيات – تميزه عن تراث المناطق اليمنية والعربية الأخرى. وانتظمت الدراسة في تمهيد ومبحثين، المبحث الأول: أشكال الموروث الحكائي الشفوي في تهامة، والمبحث الثاني: شخصيات الموروث الحكائي الشفوي في تهامة. أما هدف الدراسة، فهو تأصيل أشكال الموروث الحكائي الشفوي في تهامة، وشخصياته ورصد ملامحه وسماته. وقد أفاد البحث البحث من المنهج الوصفي التحليلي، وخلص البحث إلى أن الموروث الشفهي في تهامة يتوزع على ثلاثة أشكال هي: الحكاية الخرافية والحكاية الشعبية النمطية والحكاية الشعبية العادية، كما أن شخصيات الحكايات النمطية تمثل خصوصية تهامية تميز الموروث الحكائي في تهامة عن غيره من تراث المناطق اليمنية والعربية الأخرى، وتوصي الدراسة بالالتفات إلى هذا الكنز الإبداعي والمعرفي والعناية به وإنقاذ ما تبقى منه بالجمع والتوثيق والدراسة لحمايته من الاندثار والضياع.
الكلمات المفتاحية : تهامة ، الحكاية الخرافية ، الحكاية الشعبية ، الحكاية النمطية ، سالمين ، علي زنية ، عجوزة الكزكوز .

Abstract

The present study aspires to demonstrate the cognitive and creative value of the oral storytelling heritage in Tihama،
By rooting its forms and monitoring its unique specificity – in forms and characters – distinguishing it from the heritage of the other Yemeni and Arab regions.
Thus, it tries to draw the attention of students and academic research institutions to the need of taking care of this heritage, and saving what is left of it through collection, documentation and study to protect it from extinction and loss.

مقدمة:-

الحكايات الشعبية شكل من أشكال التعبير الشفهي الجمعي، تشيع وتنتشر في المجتمعات الريفية ذات النشاط الزراعي والرعوي، كما تنتشر في المدن والأحياء الشعبية منها على وجه الخصوص.

وقد لعبت الحكايات الشعبية دورًا مهمًا في حياة المجتمعات البشرية منذ القدم، وعرفتها كل الشعوب، فلكل شعب مخزونه وموروثه من الحكايات التي يتوارثها أبناؤه جيلًا بعد جيل.

لكنها في العصر الحديث بدأت تفقد مكانتها وشعبيتها – بل وكينونتها – تدريجياً منذ ظهور وسائل الإعلام الحديثة كالسينما والمسرح، مروراً بالتلفزيون الذي دخل إلى كل بيت ليسحب البساط من تحت أقدام الحكايات الشعبية، وصولاً إلى ظهور وسائل التواصل الاجتماعي الحديثة، التي ربما شكلت المسمار الأخير في نعش هذا الموروث الشعبي.

فالحكاية الشعبية ليست مجرد نص وحسب، بل هي بيئة وبنية منه تتشكل عناصرها من الراوي والنص والمتلقي، فإذا كانت الوسائل والوسائط الإعلامية الحديثة قد قامت بدور الراوي ووظيفته في التسلية والإمتاع والإفادة والتربية... إلخ، وبطريقة أكثر إغراءً، واستطاعت بالتالي أن تستولي على جمهوره، عندها لم يبق من الحكايات الشعبية إلا نصوص شاحبة في ذاكرة من تبقى من الرواة، وهذه هي الأخرى في طريقها إلى التلاشي والاندثار بموت أصحابها، إذا لم تتداركها أيدي الدارسين بالتوثيق والدراسة.

وما ينطبق على المجتمعات العربية ينسحب بالضرورة على المجتمع اليمني عامة والمجتمع التهامي منه بصورة خاصة، فقد باتت الأجيال الجديدة التي ظهرت خلال العقود الثلاثة الأخيرة غريبة عن موروثها، وتجهل كل الجهل عادات وتقاليد هذا الموروث، كما أن هذا الموروث لا يزال كنزا مجهولا أمام القارئ اليمني والعربي على السواء ، الأمر الذي دفع الباحث إلى الاتجاه نحو دراسة الموروث الحكائي الشفهي في منطقة تهامة، معتمدا في ذلك على مدونته الشخصية من الحكايات الشعبية التهامية، التي عمل على جمعها وتوثيقها - خلال العقدين الماضيين - من مختلف المناطق التهامية .

وتسعى الدراسة إلى تحقيق هدفين هما: تأصيل أشكال الموروث الشفهي في تهامة والتعريف بخصائص شخصياته أولا، ورصد ملامحه وسماته ثانيا. لعلها تشكل نافذة صغيرة يطل من خلالها شباب اليوم وفتيانه على موروثهم الشعبي الذي تربى عليه آباؤهم وأجدادهم من قبل، وتفتح طريقا جديدا للباحثين لمقاربة هذا الكنز الدفين ونفض الغبار عن مكنوناته، متخذا من المنهج الوصفي التحليلي منهجا للدراسة التي توزعت على تمهيد ومبحثين هما:

المبحث الأول: أشكال الموروث الشفهي في تهامة.

المبحث الثاني: شخصيات الموروث الشفهي في تهامة.

التمهيد:

تتمتع منطقة تهامة – الواقعة غرب اليمن – بمجموعة من السمات الحضارية والجغرافية التي تميزها عن كثير من المناطق اليمنية الأخرى؛ إذ هي ذات أرض خصبة تربتها تنتج أصنافا متنوعة من الحبوب والثمار والخضروات، وتجري فيها أودية كثيرة الماء كوادي زبيد ووادي رمع ووادي سهام وغيرها، فكانت بحق بيئة جاذبة لاستقرار السكان في جهاتها المتعددة؛ لكثرة خيراتها، وبسبب تضاريسها السهلية وقربها من البحر ووقوعها على طريق قوافل التجار والمسافرين إلى بلدان مختلفة، الأمر الذي جعلها منفتحة حضاريًا تولى حكمها بعض القوميات غير العربية كالنجاحيين الأحباش والأيوبيين الأكراد والرسوليين التركمان وأخيرًا الأتراك العثمانيين، ولا يزال يستوطنها الكثير من الأسر المنحدرة من هذه القوميات والأعراق، كما كانت تهامة طريق الحاج الأسيوي عامة والهندي خاصة إلى ستينات القرن العشرين المنصرم تقريباً؛ إذ كانوا يركبون بحراً إلى مدينة عدن، ثم يسيرون براً من الجنوب نحو الشمال – عبر الساحل التهامي – حتى مكة المكرمة، ويعودون في الطريق نفسه إلى عدن، وقد فضلت مئات الأسر الهندية البقاء والسكن في أرياف وحواضر تهامة مثل: المخاء وحيس وزبيد وبيت الفقيه والحديدة... إلخ.

كل ذلك إضافة إلى سكان تهامة الأصليين، وهم القبائل القحطانية الثلاث: الأشاعرة في جنوب تهامة وعك بن عدنان في وسطها وسعد العشيرة في شمالها.

ومن مجموع هذه العناصر والأعراق تشكل النسيج الاجتماعي للمجتمع التهامي وتجاور فيه: العربي والزنجي والهندي والتركي والكردي.

ولا شك أن هذا التنوع في النسيج الاجتماعي كان عاملاً مهماً وسبباً رئيساً في ثراء الموروث الشعبي التهامي وخصوبته، فهذه العناصر والأعراق لم تأتِ إلى المجتمع التهامي بمفردها عارية عن ماضيها، بل جاءت حاملة معها عاداتها وتقاليدها وثقافتها وموروثها الحضاري من موطنها الأصلي، فشكل ذلك روافد متعددة ومتنوعة تصب في مجرى الثقافة والموروث التهامي، فاتصف بالتنوع والثراء وتميز من كثير من المجتمعات والمناطق اليمنية الأخرى ذات النسيج الاجتماعي المتجانس والبنية القبلية القرابية المغلقة.

هذا التنوع لم يقتصر على العادات والتقاليد والمأكل والملبس وما يتصل بالسلوك اليومي وحسب، بل شمل أيضاً الفنون وأشكال التعبير الشفوي بشقيه الشعري والحكائي، فتنوعت أشكال الشعر الشعبي التهامي وتعددت صوره ومضامينه، كما انتشرت الحكايات الشعبية في أوساط المجتمع التهامي وتعددت أشكالها، وكان لها رواتها من الرجال والنساء ولها جمهورها من مختلف الفئات العمرية.

وقد ساهمت جملة من العوامل في حضور وانتشار الحكايات الشعبية في المجتمع التهامي؛ حواضره وأريافه على حد سواء، ومن هذه العوامل:-

أنَّ الحكايات الشعبية التهامية خلال القرون والعقود الماضية كانت هي المصدر الأساس للمتعة والتسلية والمعرفة في المجتمع التهامي – شأنها شأن المجتمعات الأخرى – ومن ثَمَّ كانت تمثل ضرورة لا غنى عنها خاصة للأطفال واليافعين، وهو ما أسهم في حضورها وديمومتها.

أنَّ الطقس شديد الحرارة خلال معظم أشهر العام، فحرارة أشعة الشمس القوية في تهامة تستمر حتى ساعات متقدمة من الليل، وهو ما يجبر التهاميين على الخروج ليلاً للسمر والاسترواح في الساحات وعلى التلال التي تتوسط القرى، وفي أفنية المنازل في الحواضر، كما يجبر سكان المدن وخاصة كبار السن على الخروج بعد العصر إلى الساحات العامة أو إلى ظاهر المدينة للاسترواح والهروب من حرارة المنازل. وغالباً ما تكون هذه المجتمعات هي البيئة المناسبة التي يتحلق فيها الصغار والكبار حول الرواة ذكوراً وإناثاً للاستماع إلى حكاياتهم.

الفضاء الجغرافي المفتوح، لأنَّ السهل التهامي يتشكل من أراض منبسطة يتخللها الكثير من الوديان التي تأتي من الجبال شرقاً لتصب في البحر الأحمر غرباً، لذلك كانت معظم مساحات هذا السهل أراضي زراعية ومراعي خصبة، وقد سمحت هذه الطبيعة المنبسطة والممتدة بانتشار القرى والمدن الصغيرة وتقاربها وسهولة الحركة والانتقال بين هذه القرى والمدن، وهو ما زاد من تقوية الروابط الاجتماعية بين السكان، وشجع على قيام مناسبات أسبوعية وسنوية في مناطق مختلفة من تهامة كالأسواق الأسبوعية والزيارات السنوية التي تقام حول أضرحة الأولياء المنتشرة على طول الساحل التهامي.

كل ذلك شكل بيئة مواتية وعاملاً هاماً في شيوع وانتشار وانتقال الحكايات الشعبية بين المناطق التهامية المختلفة.

تنوع النسيج الاجتماعي أسهم في رفد وتخصيب الحكايات الشعبية التهامية، فكثير من الأعراق جلبت معها حكاياتها من موطنها الأصلي، فشكل ذلك رافداً يغذي مخزون الذاكرة الجمعية التهامية من الحكايات.

وهو ما يفسر التشابه بين بعض الحكايات الشعبية التهامية وبعض الحكايات في مناطق أخرى من الوطن العربي بل والعالم، مثل حكاية الملك وبناته الثلاث على سبيل المثال، فهذه الحكاية تروى في تهامة كما تروى في بعض الأقطار العربية، وهي الحكاية نفسها التي بنى عليها شكسبير مسرحيته (الملك لير).[1]

1- حول هذا الموضوع انظر صـــ123 من التراث الشعبي – د أحمد زياد محبك.

وهو ما يؤكد أن (الحكايات الشعبية موصولة الشرايين في مجتمعات متعددة، وهذا القول لا يدل على أنها من جذور مشتركة فحسب، بل أيضاً لأنها تحاكي هموم الإنسان وقيمه ومثله العليا، وما يشغله أو يروح فيه عن نفسه أو يسد نقصاً لديه) [1]

هذه هي أبرز العوامل التي أسهمت في حضور وانتشار الحكاية الشعبية في منطقة تهامة، وقد استمر هذا الحضور حتى عقد الثمانينات من القرن المنصرم، إذ ظهر تلفزيون صنعاء في السنوات الأخيرة من عقد السبعينات، وبدأ بالتسلل إلى البيوت ومنافسة الحكايات الشعبية.

وعلى الرغم من ظهور الراديو قبل هذه الفترة إلا أنه لم يؤثر على حضور الحكاية الشعبية، ولم يشكل خطراً وجودياً عليها، ربما لأنه لم يكن متوجهاً بصورة أساسية إلى الفئات العمرية التي تشكل جمهور الحكاية الشعبية كالأطفال والفتيان وكبيرات السن، كما هو حال التلفزيون الذي يقدم برامج وأفلام كرتون للأطفال واليافعين ومسلسلات وأفلام للكبار، نافست بقوة الحكايات الشعبية بما تقدمه من متعة وإثارة ومعرفة.

ولأن تلفزيون صنعاء – خلال عقد الثمانينات ومعظم تسعينات القرن الماضي – كان ذا إمكانات متواضعة وساعات بثه محدودة، فقد نافس الحكاية الشعبية إلى حد ما، لكنه لم يسحب البساط من تحتها تماماً، خاصة في القرى والأرياف التهامية.

أما الضربة التي أصابت الحكاية الشعبية التهامية في مقتل، فقد تمثلت في ظهور القنوات الفضائية، وازدحام الفضاء التهامي – كغيره من مناطق العالم – بمئات القنوات التي تبث برامجها على مدار الساعة، منها عشرات القنوات الموجهة نحو الأطفال، وعشرات القنوات المتخصصة في بث المسلسلات العربية والأجنبية، ومثلها في بث الأفلام، ناهيك عن عشرات القنوات الغنائية والإخبارية... إلخ ، فاستولت هذه القنوات على جمهور الحكايات الشعبية ورواتها على حد سواء، ولم تعد هذه الحكايات واقعاً معاشاً، بل أضحت تراثاً يتذكره بحنين الأجيال التي عاشت قبل ثمانينات القرن العشرين، وتجهله كل الجهل الأجيال الجديدة.

المبحث الأول

أشكال الموروث الشفهي في تهامة

إنَّ الحكايات الشعبية التهامية – شأنها شأن الحكايات في المجتمعات الأخرى – ليست مجرد نصوص، أو سرد لنصوص في مناسبات معينة، بل كانت واقعاً معاشاً وممارسة وسلوكاً يومياً، وعادة يحرص عليها أفراد المجتمع التهامي.

ففي القرى والأرياف يتحلق الأطفال واليافعون والنساء بعد العشاء حول الجدة أو المرأة الكبيرة في السن التي لديها مخزون وافر من الحكايات، وتمتلك مهارة السرد والقدرة على شد انتباه

1 - صـــ212 بني السرد الحكائي في الأدب الشعبي – د. عاطف عطية.

المستمعين، فتنطلق في سرد حكايتها وكلما انتهت من حكاية استزادها الجمهور حتى يدركها ويدركهم التعب والنعاس.

أما في الحواضر التهامية، فقد كان الرجال – وأغلبهم من كبار السن – يخرجون بعد صلاة العصر إلى الساحات العامة والتلال المحيطة بالمدن للاسترواح والهروب من حرارة المنازل، وهناك يتحلقون حول أحد الرواة المجيدين الذي يمطرهم بعدد من الحكايات المضحكة والمسلية التي تزيل عنهم تعب يوم حافل بالعمل، حتى إذا مالت الشمس نحو الغروب عاد الجميع إلى منازلهم.

وفي مساء المدن والحواضر التهامية يتحلق أطفال كل أسرة حول الجدة أو الأم التي تبدأ بسرد حكايتها حتى يغلبهم النعاس ويخلدون إلى النوم.

هذه هي عادات وطقوس الحكايات الشعبية في المجتمع التهامي، وهي متشابهة حد التطابق مع عادات مناطق ومجتمعات يمنية وعربية أخرى.

وإذن فالحكاية الشعبية التهامية ظاهرة اجتماعية وفنية تتشكل من ثلاثة عناصر هي:

الراوي: ويلعب دوراً مهماً يتجاوز دور السارد أو الناقل الأمين، فهو يسهم في تشكيل النص وتطويعه، من خلال الحذف والإضافة والتعديل، بما يتناسب مع طبيعة الجمهور وتفاعلهم واحتياجاتهم، كما يستخدم المؤثرات الصوتية لشد انتباه المستمعين فيعلي ويخفض من نبرات صوته وتارة يضخم صوته ليحاكي صوت الملك أو البطل وتارة أخرى يرعش صوته ليقلد صوت الجبان والخائف كما يستعين بتعبيرات وجهه والإشارة بيديه ليجسد جو الحكاية... إلخ.

لذلك فليس كل شخص – ذكراً كان أم أنثى – مؤهلاً لسرد الحكاية الشعبية، فقليلون هم من يمتلك الموهبة والمهارة والقدرة على ذلك.

الجمهور: ويختلف ويتنوع بتنوع الرواة وأشكال الحكايات كما سنرى لاحقاً.

أما مادة الموروث الحكائي الشفوي في تهامة، ونقصد بذلك الحكايات المروية فتتوزع على شكلين رئيسيين هما: الحكاية الخرافية والحكاية الشعبية.

الحكاية الخرافية:-

وتسمى في تهامة "خُرَّافة" [بضم الخاء وتشديد الراء وفتحها]، والجمع خراريف وخُرَّافات، كما يطلق عليها في أقصى الشمال التهامي[1] "خرفينة" و "حِكْوَاية"[2] [بكسر الحاء وسكون الكاف وفتح الواو ثم الياء] وتجمع على خرفينات وحكوايات.

والحكاية الخرافية قصة يمتزج فيها الواقع بالخيال، ويتجاور في داخلها الأحداث الواقعية والأحداث الغرائبية والسحرية، فهي " تتألف من مجموعة من الحوادث التي تكون في النهاية حدثاً

1 _ وأقصد ما كان يعرف قديماً بالمخلاف السليماني، وما يعرف الآن بجنوب المملكة العربية السعودية وتحديداً منطقة جيزان وما حولها.

2 _ قالت عجيبة: صـ11

كلياً، فإذا حاولنا أن نرد هذه الحوادث الجزئية إلى عالمنا الواقعي فإننا نشعر على التو أن هذا مستحيل، لا لأن هذه الحوادث الجزئية ذات طابع سحري عجيب فحسب، ولكن لأنها لا يمكن أن تعيش إلا في الحكاية الخرافية"[1] ، فعلى سبيل المثال في إحدى الحكايات الخرافية التهامية نجد البنت بعد أن اكتشفت أن زوجة أبيها ذبحت أخاها وطبخت لحمه أخذت جزءاً من لحم أخيها لتزرعه سراً في جرة الماء وظلت تتعهده بالسقي والرعاية يومياً حتى استحال عصفوراً يحوم في سماء البيت ويصيح حتى اكتشف أبوه السر، وفي حكاية خرافية تهامية أخرى تصبح البنت التي قتلها أخوها ظلماً نتيجة وشاية زوجته بها تصبح نخلة يستظل ويغتسل تحتها الجميع وهكذا.

كما يتجاور في داخلها أيضا البشر العاديون (الأب ، الزوج ، الأطفال ، الأخ ، الأخت...الخ) مع الجن والعفاريت والكائنات الممسوخة مثل أبوعنز والعنوزة وغيرهما .

لذلك كانت الحكاية الخرافية غير قابلة للتكرار والحدوث مرة أخرى، لأنها تدور في زمان ومكان مجردين غير متعينين (كان يا مكان في قديم الزمان ، في يوم من الأيام..) ، "فهي تبتعد عن الزمان والمكان لأنهما من لوازم عالمنا الواقعي"[2].

وعلى الرغم مما تنطوي عليه الحكايات الخرافية التهامية من الغرائبية والخيال المجنح في أحداثها وشخصياتها، إلا أنها ذات أبعاد اجتماعية فهي تحفل بالكثير من القضايا والموضوعات الاجتماعية المتصلة بالعلاقات الأسرية كعلاقة الزوجة الثانية (الخالة) مع أبناء زوجها وسعيها إلى التخلص منهم، وكعلاقة زوجة الأخ بأخت زوجها ومكايدتها لها ودفع الزوج للتخلص من أخته، وكموضوع العقم والسعي للإنجاب وغير ذلك.

لكن الحكاية الخرافية التهامية تعالج هذا القضايا بأسلوب فانتازي يشيع جو الخوف والرعب لدى متلقي هذه الحكايات، وهذا هو السر الكامن وراء تجاور الواقعي والخيالي في الحكاية الخرافية.

وفيما يتعلق برواة الحكايات الخرافية التهامية وجمهورها، فقد جرت العادة أن يختص بسردها النساء أكثر من الرجال، فمن النادر جداً أن يرويها الرجال "وربما مرد ذلك لكون الرجل لا يحب أن يكون في موضع المخبر بما ليس حقيقياً إذ أن الحكايات المروية لا تستقيم مع جدة ورجاحة عقل الرجل كما ينظر إليه في ذلك المحيط" [3].

فالرجل – خاصة في الأرياف – يتأفف ويستنكف أن يروي أحداثاً خيالية لا تطابق الواقع ولا يصدقها العقل ولا تستقيم لمنطق، لأن ذلك من وجهة نظره يهز من شخصيته وينقص من قيمته أمام أسرته ومجتمعه.

---

1 _ أشكال التعبير في الأدب الشعبي: صـــ99

2 _ نفسه

3 - قالت عجيبة: صـــ

أضف إلى ذلك أن الحكايات الخرافية هي اللون المفضل لدى الأطفال واليافعين والنساء – الذين يجدون فيها المتعة واللذة الممزوجتين بالخوف – وهؤلاء هم جمهور الحكَّاءات لا الحكَّائين.

الحكاية الشعبية:-

ويطلق عليها التهاميون "حلوالة" [بكسر الحاء وسكون اللام وفتح الواو واللام الثانية]، والجمع حلاويل وحلوالات، وهي تسمية منحوتة من الجملة الافتتاحية التي يبدأ بها الراوي تهيئة أذهان السامعين قبل سرد الحكاية، فيقول (حلالي ولك) أي طاب لي ولك ولك السمر[1]، ويطلق عليها في الشمال التهامي "خُبَّيْرَة" [بضم الخاء وتشديد الباء وفتحها وسكون الياء] والجمع خباير[2].

وعلى خلاف الحكاية الخرافية تدور الحكاية الشعبية في فضاء واقعي، وشخصياتها وأحداثها واقعية، وهي قابلة للتكرار والحدوث مرة أخرى.

وفي الموروث الشعبي التهامي يختص بسردها غالباً الرجال ربما لابتعادها عن الغرائبية وعن الإفراط في الخيال وما يخالف العقل.

فهي لا تهدف إلى المتعة واللذة الممزوجة بالخوف كحال الخرافة، بل تهدف إلى المتعة والإدهاش من ذكاء البطل أو الضحك والسخرية من غبائه، وأحياناً تهدف إلى أخذ العبرة أو تعليم حكمه.. إلخ.

والحكاية الشعبية في الموروث التهامي بدورها تنقسم إلى شكلين هما:-

الحكاية الشعبية النمطية (حكاية الشخصيات):-

وهي ضرب من الحكايات الشعبية التهامية يتخذ نسقاً خاصاً يشبه بنية المقامات، حيث تضطلع بعض الشخصيات بدور البطولة في عدد من الحكايات فتغدو كل شخصية محوراً تدور في فلكه مجموعة من الحكايات.

وفي هذا النوع من الحكايات الشعبية التهامية تبرز الشخصية الرئيسة في واجهة الحكاية وتهيمن على مجمل عناصر السرد فيها، بل إن العناصر السردية الأخرى – بما فيها الحدث تأتي أصلاً لخدمة الشخصية وتكريس ملامحها وإبراز سماتها، لذلك غالباً ما تغدو هذه الشخصيات نمطية لها ملامحها الثابتة والمستقرة على الرغم من تنوع الحكايات التي ترد فيها وتعدد الأحداث التي تمرَ بها، فحكايات (علي زنيَة) تجسيد للبطل الذكي و(سالمين) للغباء و(عجوزة الكركوز) للمكر والشر... إلخ كما سنرى لاحقاً.

1 - وتطلق تسمية "حلوالة" في بعض المناطق التهامية أيضاً على الألغاز والأحاجي

2 - قالت عجيبة: صـ12

الحكاية الشعبية العادية (حكاية الأحداث):-

وهي أقل حجماً، وتشبه الحدوته في التراث الشعبي المصري، وتختلف عن النمط السابق في كونها حكاية أحداث لا شخصيات، إذ يكون التركيز فيها على الحدث مهما كان بسيطاً، وهو حدث تصنعه غالباً شخصية عامة غير معينة وغير موصوفة أيضاً مثل: (كان في واحد) أو (كان في ملك معاه ثلاث بنات)... كهذه الحكاية مثلاً:

(كان في وَحْدُ فقير ومسكين وكان أحدب خرج ليلة يتمشى خارج المدينة فوجد عرس للجن وهم فرحين ويغنون والثلوث والربوع فانسجم معهم وأضاف والخميس يومٌ أنيس فأعجبتهم التكملة وكان صوته رخيماً فراحوا يرددون وراءه والخميس يومٌ أنيس ثم أعطوه من المال والذهب الشيء الكثير وأزالوا الحدبة التي على ظهره، وعندما رآه أخوه الغني حسده وسأله عن قصته فحكى له، فخرج أخوه في الليلة التالية فوجد عرساً للجن وهم يغنون والثلوث والربوع وتجاوبهم فرقة أخرى والخميس يوم أنيس فاقتحم العرس وراح يتقفز ويغني والسبتي والأحدي وكان صوته نشازاً فانزعج الجن وضربوه ضرباً مبرحاً وركبوا على ظهره حدبة أخوه وطردوه). [1]، ومن الواضح أن هذه الحكاية تحمل في طياتها عبرة وحكمة تتحدث عن عاقبة الطمع والحسد.

وقد يكون أبطال هذا النوع من الحكايات الشعبية من الطيور أو الحيوانات الأليفة، كهذه الحكاية: (حلالي ولك: ألا ثلاث بنات صغار راحوا يلقطوا كِيْنَ امعاريج خارج امقرية، ثنتين عرفوا ينزلوا من على امعرج ويروحو بيوتهن وواحدة ولا عرفت تنزل وحنبت في امعرج وكان أهلها في امبيت مشغولين معاهن طعامو يشللوه ويضحوه، أتن حمامة تغرد فوق امبيت، قالوا زاعطوا امحمامة وجاروها شتاكل امطعام، قالن لهن:

ولاني بحاجة بُرّكُنْ

أتيت إلا شاقول لكنْ

على بنتكن زينبه

في امعرج مُحَنّبه

لا آكله ولا شاربه

ما في إلا امدموع مُسّاكبه فرموا ما في أيديهم وراحوا يجروا يدوروا بعد بنتهم زينبة وخارجوها وروحوا بها إلى امبيت) [2].

1 - من مدونة الباحث نقلاً عن المعمرة زينب يوسف واصل (الجراحي الأعلى)

2 - من مدونة الباحث نقلاً عن المعمرة عزيزة شجاني، كين امعاريج : ثمر شجرة السدر، طعامو: حبوب الذرة، يشللوه ويضحوه: يغسلوه وينشفوه استعداداً للطحن ، زاعطو: طاردو

المبحث الثاني

شخصيات الموروث الشفهي في تهامة.:-

تؤدي الشخصيات دوراً محورياً في الحكايات الشعبية التهامية، شأنها شأن العناصر السردية الأخرى، حيث تتنوع ما بين رئيسة وثانوية وخيالية وواقعية وبشرية وحيوانية.. إلخ.

ويمكن حصر الشخصيات في الموروث الحكائي التهامي في الأنواع التالية:-

شخصيات خيالية: وهم أبطال الحكايات الخرافية التهامية مثل (أبو عنز والعنوزة والعفاريت) وغيرهم من الشخصيات الأسطورية التي صنعتها المخيلة الجمعية ولا وجود لها على أرض الواقع، فشخصية (أبو عنز) مثلاً مسخ له صورة آدمي وله ذيل يخفيه، وهو من أكلة لحوم البشر، ولديه القدرة على التشكل في صور عديدة، ومثله أنثاه (العنوزة).

وهذه الشخصية الخيالية لها وجود في حكايات مجتمعات عربية ومناطق يمنية أخرى وإن كان بتسميات مختلفة فهو (الغول)، ويسمى في بعض مناطق تعز (الجرجوف)[1].

شخصيات واقعية عامة غير موصوفة: وهي على النقيض من النوع الأول، لكن على الرغم من واقعيتها تظل شخصيات عامة وإن كانت محددة الوظيفة نحو (الملك – الأمير الأب – الزوجة – الخالة – القاضي...)

شخصيات عامة موصوفة: (ولا توصف الشخصيات العامة ولا تحدد ملامحها الجسمانية والنفسية إلا إذا كان فيها عيب مثل العور أو العرج أو القصر، أو البخل أو الجبن أو الخبل، وغالباً ما يكتفي بصفة واحدة تتحدد بها الشخصية)[2]، مثل (كان في واحد أحدب...) في الحكاية السابقة.

شخصيات عامة غير محددة: نحو (كان في واحد – كان في رجال.. إلخ).

شخصيات حيوانية: مثل بعض الطيور والحيوانات الأليفة التي غالباً ما تلعب دور المساعد والمنقذ للبطل، مثل حكاية الحمامة التي أنقذت زينبة في الحكاية السابقة.

ولا شك أن هذه الشخصيات في الموروث الحكائي التهامي تتشابه إلى حد كبير مع شخصيات الحكايات الشعبية في مناطق يمنية وعربية أخرى، بل ومع بعض شخصيات الحكايات الشعبية العالمية.

أما الشخصيات التي يتفرد بها الموروث الحكائي الشفهي التهامي دون غيره من المناطق اليمنية والعربية الأخرى، فهي الشخصيات النمطية التي تشكل خصوصية تهامية بامتياز.

وهي شخصيات محدودة [علي زنية – سالمين العبد – عجوزة الكزكوز] وكل واحدة من هذه الشخصيات تدور حولها عشرات – إن لم يكن مئات – الحكايات الشعبية.

---

1 - حكايات وأساطير يمنية – حكاية الجرجوف

2 - من مدونة الباحث نقلاً عن المعمرة فاطمة كمال (وادي زبيد) حيدو: انظروا ، اجزع سناه: اذهب إليه، باك: ذهب، راكيو امجدار: يسند الجدار حتى لا يقع، شاهات لك: سآتيك به.

وهي نمطية؛ لأن لكل واحدة من هذه الشخصيات مجموعة من الصفات الذهنية والسلوكية الخاصة بها التي تتكرر في كل الحكايات التي تضطلع ببطولتها، ولا تشبه الشخصيات الأخرى، فليست هناك حكاية تهامية يظهر فيها علي زِنية غبياً أو سالمين ذكياً أو عجوز الكزكوز طيبة.

-علي زِنَيَّة :-

(بكسر الزاي أو ضمها وفتح النون وتشديد الياء)، وهي شخصية محبوبة في المجتمع الشعبي التهامي، ويحظى بإعجاب وتقدير متلقي حكاياته، لما يتسم به من ذكاء حاد ودهاء وقدرة على الحصول على ما يريد [حكاية حبتي أو الديك مثلاً]، كما يتمتع بقدرة فائقة على التخلص من المآزق والنيل من أعدائه كهذه الحكاية (في واحد نصابُ، قال: فينه علي زنية ذا الذي يزيد على الناس أنا شاوريه؟ قالوا له الناس: بوك لك شيزيد عليك، قال: علموا لي به وحيدوا من هو شيزيد على امثاني، قالوا له: اجزع سناه، ذاهو طريق بيته، باك لما عند بيته لقي واحد جالس في ظل جدار بيت علي زنية، سايله فينه علي زينة؟ قال له: ما تشاه ذاك يزيد على الناس كلن شيزيد عليك بوك لك، قال له: أنت علم لي به وبس، قال له أنا أعلمه وشاجيب لك ياه بس أنا راكيو امجدار لا يفلت وإلا شاهات لك ياه، قال له: خلاص أنا شركا لك امجدار وأنت هات لي علي زنية وشاوريك كيف شاضحك عليه؟

جلس امرجال راكيو امجدار ينتظر للذي شيجيب له علي زنية حتى الظهر وامشمس فوقه شيقوم خايف لمجدار يفلت، وبقي في امشمس راكيو امجدار حتى العصر.

أتوا الناس قالوا له: ما تاهب هنه؟ قال لهم: انتظر لواحد قال لي أركا لي امجدار، وأنا شاهات لك على زنية، ضحك الناس عليه، وقالوا له: من امطل لما الآن راكيو امجدار وتشى تزيد على علي زنية، قوم روح لك ولا على امجدار حاجة، ذا اللي زاد عليك هو علي زنية)[1].

ومن الواضح أن شخصية علي زنية تشبه إلى حد كبير شخصية أبوزيد السروجي بطل مقامات الحريري، وهو ما يشير إلى أن هذه الشخصية تنتمي إلى فئة المكديين الذين كانوا ينتشرون في الحواضر الإسلامية خلال العصور الوسطى، وكانوا يستخدمون ذكاءهم ومكرهم في الحصول على قوتهم.

ومن هنا فإن الباحث يرجح أن تكون هذه الشخصية قد تخلقت في المجتمع الشعبي الزبيدي إبان العصر الرسولي وما بعده وصاغتها مخيلتهم الجمعية، ومن مدينة زبيد الحاضرة الإسلامية والتهامية التاريخية انتشرت هذه الشخصية وحكاياتها إلى باقي المناطق التهامية.

1 - من مدونة الباحث نقلاً عن الراوي علي موسى ياسين (مدينة زبيد)

4,1,2 سالمين:-

وهذه الشخصية تستقطب الكثير من الحكايات الشعبية التهامية، التي ينهض فيها سالمين بدور البطولة ويتصدر أحداثها.

وشخصية سالمين – على النقيض من الشخصية السابقة – هي مثار سخرية وتندر أفراد المجتمع الشعبي التهامي لما تتصف به من غباء وسوء تدبير وتصرف، مع ادعاء بامتلاك الذكاء، والحكمة، وامتلاك القدرة على حل المشكلات ومن هذه المفارقات الساخرة تتشكل شخصية سالمين العبد الأسود التي لا تثير سوى السخرية والضحك لدى متلقى حكاياته، كهذه الحكاية مثلاً: (دخل ثور إلى عريش فوجد زيراً فيه قليل من الماء فأدخل فيه رأسه ليشرب، لكن رأسه يعلق داخل الزير ولم يستطع الفكاك منه، وعندما رآه أصحابه حاولوا إنقاذه لكنهم لم يفلحوا فخرجوا يطلبون العون والمساعدة من الجيران أو أحد المارة فوجدوا سالمين عند باب العريش فسألوه إن كان بمقدوره المساعدة على حل هذه المشكلة وإخراج رأس الثور من الزير ، فأجاب بابتسامة الواثق وهو يهز رأسه بالإيجاب وعندما رأى الثور يحاول الخلاص زادت ابتسامته وهو يتصفح وجوه الحاضرين القلقة ، ثم قال بلغة الآمر (هُدّوا أريش) استغرب الحاضرون إلا أنهم لم يملكوا إلا تنفيذ الأمر لإنقاذ ثورهم، وبعد هدم العريش قال (اقطعوا رأس ثور) فقطعوا رأس الثور الذي سقط في قعر الزير، ثم قال (والآن اكسروا الزير) ثم التقط رأس الثور المذبوح وسلمه إلى أهله وهو يبتسم ابتسامة المنتصر الواثق من نفسه) [1].

فهل تعكس هذه الصورة التي ترد عليها شخصية سالمين موقفاً شعبياً ساخراً تجاه ذوي الأصول الزنجية في المجتمع التهامي؟

أم أن الأمر مصادفة ليس غير؟

صحيح أن ذوي الأصول الزنجية (العبيد والأخدام) قد أصبحوا الآن جزءاً لا يتجزأ من النسيج الاجتماعي التهامي، لكن النظر إلى تاريخ العلاقة بين الطرفين: التهامي المحلي (الأشاعرة والعكيين) والزنجي الوافد يشير إلى أن الأمر ليس مجرد صدفة، فهناك محطات تاريخية للصراع تمتد من الاحتلال الحبشي قبل الإسلام، وحتى الصراع النجاحي الصليحي والنجاحي المهدي خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين ، كان العنصر الزنجي خلال هذه الفترة غازياً ومحتلاً وحاكماً، وهو ما يجعلنا نميل إلى أن رسم المخيلة الشعبية لملامح سالمين على هذا النحو فيه موقف شعبي رافض للطرف الآخر.

وبما أن الصراع في المحطة التاريخية الأولى كان صراعاً يمنياً حبشياً، بينما كان في المحطة الأخيرة صراعاً تهامياً حبشياً، فإننا نرجح بأن يكون هذا الموقف الشعبي التهامي قد ظهر إبان الصراع

1 - من مدونة الأخ داود سالم بازي، شخت: بالت

المهدي النجاحي، فعلي بن المهدي تهامي انطلقت ثورته من أرياف زبيد، وجيشه في معظمه من القبائل التهامية، وهو الذي أسقط الدولة النجاحية وأقام دولته المهدية على أنقاضها، وبالتالي فإن المرجح أن تكون شخصية سالمين قد ظهرت خلال القرن السادس وما بعده.

لكن هل ينصرف هذا الموقف الشعبي الرافض إلى جميع أصحاب البشرة السوداء من ذوي الأصول الزنجية؟ أم إلى فئة منهم؟

إن تركيز الحكايات الشعبية على تصوير الملامح اللغوية لسالمين يبرىء هذا الموقف الشعبي من تهمة العنصرية والتعصب العرقي المطلق، ويصرفه نحو فئة معينة لا زالت على صلة وطيدة بجذورها ولا زالت تحتفظ بملامحها، ولم تستطع الذوبان في نسيج المجتمع التهامي كالنجاحيين، فسالمين لا زال ينطق الحاء هاءاً، والقاف كافاً، والظاء والذال زايا... إلخ.

وهو ما يذكرنا بالرواية التاريخية التي تذهب إلى أن المهديين بعد أن اقتحموا مدينة زبيد عاصمة النجاحيين راحوا يمشطون المدينة بحثاً عن فلول النجاحيين، فكانوا يستوقفون أصحاب البشرة السوداء ويطلبون من الرجل أن ينطق كلمة (عظم) فإن نطقها صحيحة تركوه، لأنه في هذه الحالة إما أن يكون عربياً أو من أصول زنجية بعيدة، وإن قال (عزم) قتلوه.

ومن ثم فإن تركيز الحكايات الشعبية على اللكنة الأعجمية لسالمين، إضافة إلى كونه عبداً، والنجاحيون هم عبيد وموالي الزياديين، تشير إلى أن المخيلة الشعبية التهامية جعلت من سالمين نموذجاً ورمزاً للنجاحيين فقط دون غيرهم.

- عجوزة الكزكوز:-

وهي النموذج النسائي الوحيد للبطولة في الحكايات الشعبية التهامية، ولا تذكر هذه الحكايات أي اسم لها أو لعائلتها، بل تكتفي بوصفها بلفظة (عجوزة) دون تحديد دقيق لعمرها، كما أننا لا نعرف دلالة الشق الثاني من الصفة (الكزكوز) حتى الآن.

وهي شخصية شريرة مكروهة في المجتمع التهامي، لذلك نجد رواة حكاياتها يتبعون اسمها بهذه العبارة (عجوز الكركوز اللي عليها اللعنة تجوز) لأنها تتصف بالمكر والخبث والدهاء، كما أن لديها القدرة على التخلص من المَآزق كهذه الحكاية التي تذهب إلى (أن الملك ضاق ذرعاً بخبث ومكر عجوزة الكزكوز فأمر بتقييدها ووضعها في صندوق ثم أمر جمالاً [صاحب جمل] بحمل هذا الصندوق ورميه في البحر، وفي الطريق أخذ الجمال استراحة قصيرة فلاحظ ماءً يخرج من الصندوق وآهات مكتومة تخرج من جوف الصندوق ففتح الصندوق فإذا عجوزة الكزكوز تبتسم وتحمد الله فسألها الجمال من أنت وما حكايتك؟ فقالت له أنا عمة الملك وقد كنت مريضة لا أتبول منذ عام وقد نصح الأطباء ابن أخي الملك أن يضعني في صندوق فوق ظهر جمل وأنني مع

الاهتزاز سوف أشفى، والآن الحمد لله شفيت كما ترى فاذهب سريعاً إلى الملك وخذ البشارة قبل أن يأخذها أحد قبلك وقل للملك فرّج الله على عمتك شخّت)[15].

وإذا كانت الشخصيتان السابقتان (علي زنية) و(سالمين)من المرجّح أن يكون لهما أصول في المجتمع الزبيدي، وأنهما قد انطلقا من المخيلة الشعبية الزبيدية قبل أن ينتشرا في أرجاء تهامة، فإننا لا نعرف حتى الآن مصدر هذه الشخصية وأصولها وظروف تشكلها في المخيلة الشعبية التهامية، فمن الممكن أن تكون عجوز الكركوز أنموذجاً تهامياً أنثوياً من الشطار والعيارين التي اشتهرت في حواضر عربية أخرى كـ(دليلة المحتالة) مثلاً.

لكن يبقى هذا القول افتراضاً لعل مزيداً من الوقت والجهد، والعثور على مزيد من النصوص يدعم هذا الافتراض أو ينفيه.

خلاصة ونتائج:-

حاولت هذه الدراسة الوقوف على طبيعة الموروث الحكائي الشفهي التهامي، والخطر الذي يتهدده بالتلاشي والاندثار، خاصة بعد ظهور الفضائيات ووسائل التواصل الاجتماعي.

كما حاولت هذه الدراسة تأصيل الأشكال والشخصيات التي يتوزع عليها هذا الموروث، وما يتفرد به عن غيره من تراث المناطق اليمنية والعربية الأخرى.

وقد خلصت هذه الدراسة إلى جملة من النتائج أهمها:-

1- شكّل ظهور التلفزيون المحلي في نهاية سبعينات القرن المنصرم بداية تزعزع وجود الحكايات الشعبية كواقع معاش يتشكل من راوٍ ونص وجمهور، خاصة في المدن والحواضر التهامية واقتصر حضورها على الأرياف التي لم يصل إليها بث التلفزيون المحلي، كما شكل ظهور القنوات الفضائية في أواخر التسعينات وبداية الألفية الثالثة الضربة القاصمة التي سحبت البساط من تحت هذا الموروث، فتحول من واقع معاش إلى نصوص شاحبة في ذاكرة من تبقى من الرواة.

2- يتوزع الموروث الحكائي الشفهي على ثلاثة أشكال حكائية هي:
   - الحكاية الخرافية.
   - الحكاية الشعبية النمطية (حكاية الشخصيات).
   - الحكاية الشعبية البسيطة (حكاية الأحداث).

3- يتشابه الموروث الحكائي التهامي في بعض أشكاله وشخصياته مع تراث مناطق يمنية وعربية وعالمية، خاصة الحكايات الخرافية والحكايات الشعبية البسيطة (الحدوتة)، مع بقاء الخصوصية التهامية متمثلة في فضاءات هذه الحكايات وأسماء بعض شخصياتها.

- شكلت الحكايات الشعبية النمطية وشخصياتها خصوصية تهامية بحتة تتفرد بها عن تراث المناطق اليمنية والعربية الأخرى.

وأخيرا توصي الدراسة بالالتفات إلى هذا الكنز الإبداعي والمعرفي والعناية به وإنقاذ ما تبقى منه بالجمع والتوثيق والدراسة لحمايته من الاندثار والضياع.

المراجع:

1- أشكال التعبير في الأدب الشعبي – د. نبيلة إبراهيم – دار المعارف – ط 3 -القاهرة.

2- بني السرد الحكائي في الأدب الشعبي – د. عاطف عطية – طرابلس – لبنان – 2016م

3- حكايات وأساطير يمنية – علي محمد عبده – دار الكلمة – صنعاء – ط1985 .

4- المساحة المختفية (قراءات في الحكاية الشعبية) – ياسين نصير – المركز الثقافي العربي ط 1 – 1995م.

5- قالت عجيبة (أساطير تهامية) – عبده خال – دار الساقي – بيروت – ط2013م.

6- من التراث الشعبي – د. أحمد زياد محبك – دار المعرفة – بيروت – ط 2005م.

7- التقاليد الشفهية "ذاكرة وثقافة" – لويس جان كالفي – ترجمة رشيد برهون ط 2012م – هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث.

8- الحدوثة والحكاية في التراث القصصي الشعبي- محمد فهمي عبداللطيف سلسلة كتابك (102) – دار المعارف – القاهرة.

9- الحكاية الخرافية – فردرش فون ديرلاين – ترجمة الدكتورة نبيلة إبراهيم – مكتبة غريب -القاهرة د . ت.

10- قراءة في السردية الشعبية اليمنية – أروى عثمان – إصدار بيت الموروث الشعبي صنعاء – ط 2005م.

11- الحاكم والمرأة في التراث الشعبي – خالد الأهدل – ضمن كتاب صورة الحاكم في التراث الشعبي – أوراق ندوة فكرية نظمها بيت الموروث الشعبي في الفترة ما بين 19 – 20 نوفمبر 2006م.